

اصطدام نسق الهوية وصورة الآخر في الخطاب الروائي الجزائري
في رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب " أنموذجا

Conflict between Identity System and the Image of the Other in the Algerian Novel Discourse

The case of Mohamed Dib's «The Great House» model

نجمة بن سعيد¹، محمد تحريشي²

¹ نجمة بن سعيدي (الجزائر)، Bensaidi.nedjma@univ-bechar.dz

² محمد تحريشي (الجزائر)، Tehirichi.mohamed@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/30 تاريخ القبول: 2023/08/30 تاريخ النشر: 2023/12/10

ملخص: تسعى هذه الدراسة للكشف عن نسق الهوية، وصورة الآخر في الخطاب الروائي، ما بعد الكولونيالي من أجل الوقوف على الفكر المتأثر بأثر الاستعمار عبر رؤية نسقية؛ لما يريد أن يمرره الكاتب من أفكار. فكان هذا الخطاب من أهم المواضيع التي تعد هاجس من هواجس الكتابة. من هذا المنطلق سنحاول تتبع الفكر النسقي للكاتب عبر حضور نسق الهوية، والآخر في الكتابة التأسيسية في الرواية، والاستعانة بالأدوات الإجرائية للبحث عن المضمرة؛ بالاتكاء على النقد الثقافي، بوصفه ممارسة في إطار دراستنا الثقافية عبر منظور دلالي نسقي للسرد. ومحاولة الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف تجلّى نسقي الهوية والآخر في الخطاب التأسيسي الجزائري؟

كلمات مفتاحية: خطاب ما بعد الكولونيالي؛ محمد ديب؛ النسق، الهوية، الآخر.

Abstract: This study aims at discovering the identity system and the image of the other in post-colonial novel discourse, and thence to determine the colonial affected thought through a systemic view of what the author wants to convey in terms of ideas. The studied discourse is therefore, one of the most important subjects of writing obsession. We will make use of cultural criticism and semantic and systemic narration to answer the question: How identity system and the other appear in the founding Algerian novel discourse?

Keywords: Postcolonial discourse; Mohamed Dieeb; style; Identity; the other

المؤلف المرسل: نجمة بن سعيدي، الإيميل: Bensaidi.nedjma@univ-bechar.dz

1. مقدمة:

إن الرواية هي تعبير عن واقع محمل بأحداث متصلة بشكل مباشر بأوضاع اقتصادية، سياسية واجتماعية معقدة، لآلام شعب عانى من ويلات حكم جائر وظلم جسدي ونفسي قاس، ما يجعل انعكاس الصورة النمطية للأحداث، تقارب من توثيق تاريخي لها، خاصة وأن العلاقة بين الرواية والتاريخ كما يراها بعض النقاد علاقة إشكالية، لما يوجد من تشابه بين خطوط الرواية والتاريخ واللذان يصبان في قالب واحد، وعناصر مشتركة كالشخصيات والزمان والمكان، والأحداث، فالتداعي يخرق الإنسان في جميع الأمكنة "ولا تاريخ دون قص كما قال كوتشيه، فهو شئ من الرواية لأحداث وقعت في الماضي، ونمط من الحكاية عن أشخاص وظواهر وأحداث.... ولعل هذا ما دفع بمحمود أمين العالم إلى قول بأن الرواية هي تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي " (الأحمد، 2020) فهي أي الرواية انعكاس متخيل للماضي والحاضر وكذا المستقبل.

إن الأدب الجزائري هو تجسيد لواقع وصف المجتمع الجزائري ومعاناته إبان الاستعمار، وتُجَدِّد الذيب ولج في عمق المجتمع البسيط لمعالجة تفاصيل المعاناة، ثقافية اجتماعية وسياسية، ورواية الدار الكبيرة هي طرح لعالم البؤس والجهل محمل بالمضمر الذي يحتاج إلى نظر ثاقب من اجل استخراج ما يكتنزه من انساق ثقافية في العمق، ما جعلنا نختتم بهذا الجانب من التحليل، وخاصة البحث في موضوع الهوية ومحاولة الكشف عنها عبر دراسة سوسيوثقافية ومن ثم الإجابة عن الإشكالية المبهمة في هذه الورقة البحثية:

- كيف تجلّى نسق الهوية، وصورة الآخر في رواية الدار الكبيرة لمحمد الذيب؟

للإجابة عن هذا السؤال انتهجنا في بحثنا هذا بالاعتماد على آلية النقد الثقافي في التحليل، خاصة أن النقد الثقافي الذي يعد من الدراسات الحديثة التي تحدد المقاصد، والمساعد في استنباط الأنساق الثقافية داخل النص وبخاصة المضمرة والوصول إلى ما هو متخفي، ومنها نسق الهوية وكيفية تجلي صورة الآخر واللذان نحاول البحث فيهما، في ظل الصراع الاجتماعي المنضوي داخل الخطاب الروائي للكاتب مُجَدِّد ديب خاصة وأن الجزائر في فترة الاستعمار كانت الصورة الأولية، داخل الخطاب المابعد الكولونيالي، أو ما

يمكن أن يسمى بأدب ما بعد الاستقلال؛ الذي لم يكن نهاية للنضال فالأدب يساير حالات الحرب والسلم، لتظل الرواية تعالج كل إرهابات الفترة الاستعمارية، من قضايا كانت سائدة في تلك الفترة من الحرب، وتأريخ لها.

إن الأدب الجزائري شأنه شأن الآداب العالمية والعربية متأثر بالعامل التاريخي والسياسي وبخاصة للأثر الذي خلفه الاستعمار من طمس للهوية الجزائرية.

تعد رواية الدار الكبيرة من الروايات التي استطاع من خلالها الكاتب مُحمَّد الديب بسط فكره، وإن كانت كتبت في الفترة الاستعمارية (1952) ومن ثم فد تقارب الواقعية، وأكثر من ذلك فهي مكتوبة باللغة الفرنسية، وهذا يقرها أكثر من الحدث الواقعي لعدة أسباب "فنحن نقول أننا أمام أدب «عربي» مكتوب باللغة الفرنسية ؛ لأنه مرتبط بالمكان الذي يكتب عنه وبالناس الذين يعيشون في هذا المكان، وبثقافتهم وسلوكهم الخاص والعام وهو دائماً أسير هذا المكان الذي عاش فيه أغلب سنوات طفولته وشبابه لا يستطيع أنه ينزع نفسه منه" (قاسم، 1996، صفحة 14) فمعايشة الموضوع الذي تقوم عليه الرواية هو في حد ذاته حقيقة مقنعة للتعبير عن مأساة شعب عانى من ويلات القهر في ظل فترة الاستعمار الغاشم ومحاولة الاقترب من مجتمع، بائس أنهكته سنوات الحرب.

2. نسق الهوية وصورة الآخر في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب.

إن هذه الدراسة تخضع للبحث في عمق تفكير الكاتب مُحمَّد ديب، الذي أبدع في السرد الجزائري، من خلال الاقترب ونقل واقع العيش الذي عانى منه شعب بأكمله، وتصوير المحيط وتحليل تفكير المواطن البسيط، وأهدافه في الحياة، والتعبير عن الإرهابات الأولية بطريقة غير مباشرة، والتبشير الأولى لاندلاع ثورة عارمة حققت حلم الاستقلال. ولعل ذلك دفعنا إلى محاولة فهم تفكيره من خلال آلية النقد الثقافي الذي يوجهنا إلى محاولة اكتشاف ما لم يصرح به الكاتب، من منظور ثقافي وما ساعد في تمرير النسق الثقافي.

3. مفهوم النقد الثقافي

إن النسق الثقافي هو عبارة عن صورة من العناصر المرتبطة المشكلة للمعارف، والأخلاق والتقاليد المتوارثة داخل المجتمع. والمنضوي ضمن الأنساق الثقافية والتي هي أنساق مضمرة، ليست في وعي المؤلف ولا في وعي القارئ، هي مخلفات لتراكمات فكرية تحولت إلى نسق خطابي، ونسق مركزي في إطار المقاربة الثقافية، من منطلق مفهوم أن كل ثقافة معينة محملة بمخزون نسقي مهيم، ذلك أن الأنساق الجمالية والبلاغية في الأدب، لا بد وأن تخفي في ثناياها أنساقاً ثقافية مضمرة، ومن ثم وجود وظيفة نسقية يُعنى به النقد الثقافي يقول عبد الله الغدامي في هذا الصدد: "يتحدد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمّر، ويكون المضمّر ناقصاً وناسخاً للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد. ويشترط في النص أن يكون جمالياً، وأن يكون جماهيرياً..." (الغدامي، 2005، صفحة 78) والمغزى منه هو كشف الحيل الثقافية لتمرير النسق المخفي الغير الظاهر تحت الغطاء الجمالي، المنضوي داخل النص.

إن رؤية القراءة لا ينظر إليها من زاوية التعبير الأدبي الجمالي فقط، بل كذلك تكون القراءة نسقية من خلال خضوعها للتحليل والتأويل من أجل استنتاج الدلالة النسقية المتخفية داخل جمالية التعبير. وبحسب رؤية الغدامي أن "هذا يقتضي إجرائياً أن نقرأ النصوص والأنساق التي تلك صفاتها قراءة خاصة، قراءة من وجهة نظر النقد الثقافي، أي أنها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصاً أدبياً جمالياً، ولكنه أيضاً حادثة ثقافية.

وبما انه كذلك فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظر للكشف عن التأويل، مع التسليم بوجود دلالات أخرى الصريح منها والضمني..." (الغدامي، 2005، صفحة 78) من هذا المنطلق سنحاول الكشف عن نسف الهوية كنسق ثقافي داخل رواية الدار الكبير والقائمة على مبدأ السؤال عن الهوية والبحث عن الذات.

4. نسق الهوية

يقوم فكر الأديب محمد ديب على رؤية واقعية من مسائلته للتاريخ، والواقع الذي ينسج به لامساته، عبر الولوج في خبايا الماضي، والبحث عن الهوية الجزائرية، التي تاهت بين ثنايا الشمس، من قبل المستعمر، الذي جعل من أمة كالجواثيم تقع بين أنياب المجهول، والتاريخ هو المحافظ على قوام الشعوب وهويته، ومن خلال الغوص في الواقع الجزائري المبني على كل التناقضات الاجتماعية التي غرسها فيه المستعمر الفرنسي، ومحاولته تمزيق اللحمة الاجتماعية بين أفراد الشعب، وهو الموضوع الذي نسج عليه الكاتب، وإثارة أسئلة حول هذا الوطن وهويته لما يتأثر به من أزمان وانكسارات تلوح في أفق الأمة بالمثل عبر منعطفاتها التاريخية الهدف منها البحث عن الذات "بقصد إعادة تأهيل الأمة لمواجهة المصير، بكفاءة عالية، وكفاية مناسبة وغالبا ما يتم التركيز على المشتركات التي توحد الأمة، وتجسد إمكاناتها وهذه المشتركات هي ما يحدد هوية الأمة، ويظهر تمايزها" (الحلاق، 1997، صفحة 45) والخطاب الروائي الجزائري لا يبحث في هوية المجتمع وإنما يبحث عنها "فيعني الهوية منجزة لكنها ضائعة يجب البحث عنها لاستردادها" (الحلاق، 1997، صفحة 20)

فالحديث عن الهوية هو حديث عما تتميز به جماعة بشرية، مشتركة في نخط العيش لديها وتتقاسم المعتقد واللغة، والتاريخ والمصير المشترك ومن ثمة فالهوية هي الثقافة المحملة بصفات أساسية لكل أمة "تعني الهوية ببساطة : من نحن على المستوى الجماعي، ومن أنا على المستوى الفردي، فالهوية كلمة مشاقة من الضمير "هو" للتعبير عن شخصية الفرد واتجاهاته وطابعه القومي، وانتمائه الاجتماعي والثقافي والحضاري والسياسي في الجماعة التي يعيش فيها" (الدسوقي، 2018، صفحة 388) فالهوية هي التركيبة الاجتماعية التي تحمل مميزات مشتركة.

إن للهوية عوامل تتشكل بها؛ لأنها تحمل مضمون الطابع الاجتماعي المتعدد الفروع والحقول (سياسي، فلسفي وتاريخي) "ومسألة الهوية توحى وللوهلة الأولى، إلى المسألة الأوسع وهي مسألة الهوية الاجتماعية التي تعد الهوية إحدى مكوناتها، إذ لا يمكننا التطرق إلى مفهوم الهوية إلا إذا حددنا بعدها الاجتماعي وعليه تعبر الهوية الاجتماعية محصلة مختلف التفاعلات المتبادلة بين الفرد مع محيطه

الاجتماعي.... الهوية الاجتماعية لا ترتبط بالأفراد فحسب، فكل جماعة تتمتع بالهوية تتعلق بتعريفها الجمعي وهو تعريف يسمح بتحديد موقعها في المجموع الاجتماعي " (السيف، لا يوجد) لان الهوية هي إثبات للانتماء القومي والوطني وما يرتبط بها من رموز كاللغة، الدين والتراث "تفهم الهويات داخل الدراسات الثقافية على أنها أدائية خطابية، بمعنى الهوية من الأفضل أن توصف كممارسة خطابية تحدث وتنتج ما تسميه من خلال اقتباس وتكرار معايير واصطلاحات معينة.

إن مفهوم الهوية يستخدم بالأحرى لربط الداخل الوجداني للأشخاص بالخارج الخطابي، بمعنى أن الهوية تمثل عمليات من خلال إنشائها مواقع للذات بشكل خطابي لتصبح هذه المواقع مسلم بها (أو بطريقة أخرى) بواسطة تماهيات صور ذهنية لأشخاص واستثمارات وجدانية" (دلال، 2020، صفحة 571) فالهوية مرتبطة بوجهة الذات المندمجة داخل الثقافة والحضارة الإنسانية للأمم والتي تنتج مفاهيم ورؤى تنشئ التميز عن غيرها .

إن اشتراك الجماعة في نفس المقومات التي تحددها من أجل بناء دولة، وبخاصة أن هوية مجتمع ما مقسمة إلى طبقات مختلفة، هي نفسها مميزة عن طبقات أخرى "فالتبقة العاملة التقليدية والطبقة الوسطى لهما هويات مختلفة وارتبطتا بمختلف الثقافات الفرعية إن وجود الطبقات الفرعية عزز بناء أو هيكل الطبقة في المجتمع وجعلها أكثر حضوراً" (هوليرون، 2020، صفحة 97) ومن هذا المنطق الفكري فإن الهوية في رواية الدار الكبيرة مُرَّرَ عبر تعمق الكاتب داخل المجتمع الجزائري في مرحلة من مراحل التاريخية. حضور الهوية هو الذي استوقفت الكاتب مُجدِّ ذيب عبر فكره المتنور؛ من خلال نموذج ساكنة "دار السبيطار" الدائرة الصغرى أو عينة مصغرة من المجتمع الكبير المنتمي للجزائر. والذي تمكن الاستعمار من هذا الشعب عبر تشتيته وتشكيكه في حقيقته الأزلية.

تعد محاولة لطمس هويته التي سعى الكاتب إلى توحيدها، والدفع إلى الالتفاف حول مكتسبات الهوية الجزائرية. فكان أن اتخذ من الطفل عمر أنموذجا ناهيك أن "يعيش الطفل عمر، ابن العاشرة مشكلتين رئيسيتين في حياته، إحداهما بيولوجية (حيوية) تتعلق بمتطلبات الجسم الضرورية وهي مشكلة الجوع، الذي كان يعاني منه باستمرار، لأنه لا يجد في أغلب الأحيان ما يأكله في بيتهم، بسبب فقر أسرته.... أما

المشكلة الثانية فهي فكرية-إن صح التعبير-تتعلق بوعي العالم من حوله، ومحاولته فهم تصرفات الناس ومعرفة الأشياء على وجهها الصحيح، من خلال أسئلة حائرة كان الواقع يدفعه إلى طرحها على نفسه" (منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، لا يوجد، صفحة 385) فمن منطلق هذه الزاوية وعبر الإشكالية الثانية؛ من أجل تتبع وعي الطفل الصغير عمر، وعبر هذه الشخصية اشتغل الكاتب على فئة من الشعب المقهور المكون على الهامش المضغوط من قبل سلطة حاكمية وجائرة، على الفئات الاجتماعية الهشة التي تعاني التهميش، ما جعل الكاتب يعكس الصورة لإعلاء صوت الهامش، المتعمق في قلب الثقافة الوطنية وفرعا من فروع عناصر الهوية، التي يبنى عليها أي مجتمع وتحدد إثنيتها بوضوح داخل الجماعة.

تعد الرواية هي المنتجة للثقافة في عمومها، فإن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن الكتابة باللغة الفرنسية "جان ديغو المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ ويعد مؤلف القائد الشريف الموسوم ب أحمد بن مصطفى القومي بداية تلك الانطلاقة، وينظر إليه على أنه أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية" (منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته و تطوره و قضاياها ، 2007، صفحة 89) والتي وسعت من دائرة الهوية لدى الكاتبة والحمل الثقافي الهائل والتمايل بين الكاتب كمعبر عن هموم بلده بلغة الآخر أو (لغة المستعمر) .

لعل التداخل الثقافي بين الأنا والآخر يشكل صراعا نفسي عكسته رواية الدار الكبيرة سنة 1952 عن منشورات seuil من عاصمة فرنسا باريس، ورواية الدار الكبيرة من بين الروايات التي أطلقت على الواقع الجزائري من زاوية البؤس والحرمان، "ولأول مرة تتحدث عن النضال السياسي الجزائري وعن مناضلون يعيشون في الخفاء مطاردين من قبل البوليس الاستعماري، ولأول مرة تطرح تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية وعن مفهوم الوطن وعن الهوية الحقيقية للجزائريين" (منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته و تطوره و قضاياها ، 2007، صفحة 106) حسب ما يراه كاتبها مُجد ديب.

إن المدرسة الفرنسية كانت تشجع الأطفال بمعلومات زائفة، من أجل استغلال التفكير لصالحها، وبتمير نسق الهوية داخل المتن الروائي عبر شخص المعلم حسن الذي طرح على تلاميذه سؤال عن الوطن "من منكم يعلم معنى كلمة :وطن" (ذيب، 1970، صفحة 22) إلا أن زيف المعلومة التي انغرست في أذهان التلاميذ جعلهم محملين بفكر خاطئ حال دون هويتهم الحقيقية التي طمست " رفع إبراهيم بالي أصبعه , ها ...إذن هو يعرف. لا غرابة أنه يعيد سنته، فلا بد أن يعرف. قال إبراهيم: فرنسا هي أمنا" (ذيب، 1970، صفحة 23) إلا أن نسقية الهوية مررها الكاتب عبر ما أثّر من عديد التساؤلات في ذهن بطل الرواية الطفل عمر عبر تفكيره الطفولي الساذج " لقد اكتشف عمر الكذبة فرنسا ليست أمه، سواء أكانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن، إنه يتعلم الأكاذيب .." (ذيب، 1970، صفحة 23) هذه التساؤلات التي جاء جوابها من المعلم حسن لترسيخ حقيقة الوطن " دهش عمر حين سمع المعلم يتكلم باللغة العربية، هو الذي كان يحظر عليهم أن يتكلموا باللغة العربية....عجيب هذه أو ل مرة... شدة عمر رغم أنه لا يجهل أن المعلم مسلم _فاسمه حسن_ ورغم أنه لا يجهل أين يسكن، حتى لقد كان لا يعرف هل هذا المعلم يستطيع حقاً التكلم بالعربية وقال المعلم بصوت خافت يخالطه عنف محير : ليس صحيحاً ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم عجيب لقد كان عمر يعرف أن ذلك كذب" (ذيب، 1970، صفحة 5) وكأن الهوية تشمل الوطن كما تشمل اللغة، هو تصريح لأن الهوية هي الشخص، والمجتمع بمبادئه وتوجهاته، الهوية التي يبحث عنها في المعلم وأمه وأخواته.

1.4 هوية الطفل عمر

الطفل في الرواية دلالة لرمزية البراءة وطرح التساؤلات من أجل اكتشاف وإبراز الهوية المطموسة وعلى الرغم من صغر الشخصية "ليس شرطاً أن يكون الإنسان ناضجاً اجتماعياً لكبر سنه ولكن النضج هو مقدار التكيف والتفاعل مع المجتمع والثقافة السائدة، ومدى القدرة على تحمل المسؤوليات الاجتماعية. لذلك نرى في الموقف الاجتماعي الواحد تصرفات مختلفة ودرجة كبيرة أحياناً" (الزير، 2003، صفحة 28) فالشخصية تتأثر وتؤثر في المجتمع وتكتمل حسب مدى الاستيعاب والتفاعل داخله، "له مميزات خاصة تميزه عن بقية الأطفال في عمره إن لعمر ذهنًا يقضاً وجسماً سليماً، وهو الآن

سائر في السنة الحادية عشر من عمره، ليس وجهه بالجميل جمالاً خاصاً، غير أن فيه نعومة ورقة توشكان أن تبلغاً أقصى ما يمكن أن تبلغه النعومة والرقّة في وجه من الوجوه. وكان عمر يملك غريزة عجيبة لا تحظى" (منصور، 2016، صفحة 119) عمر الطفل الجزائري الذي دخل في متاهة الحياة في تساؤل دائم عن واقع ما كان ليكون فيه، طفل بهوية غامضة داخل مجتمع مقهور مسلوب القيمة، والحياة الكريمة. هو بحث عن الذات المسلوبة خاصة .

5. صورة الآخر

بالحديث عن الهوية في رواية الدار الكبيرة لمحمد الديب، الذي هو ارتقاء في السرد من أجل عرض حالة شعب من موقع الضعف، والذي يمرر لوعي الذات، من أجل إبراز حقيقة الإنسان الجزائري، يفتح الصورة على الآخر ويمكن القول أن "الآخر في أبسط صوره هومثيل أو نقيض «لذات» أو «الأنا»؛ وقد ساد كمصطلح في دراسات الخطاب، سواء الاستعماري (الكولونيالي) أو ما بعد الاستعماري... وقد شاع المصطلح في الفلسفة الفرنسية المعاصرة خاصة عند جان بول سارتر، وميشيل فوكو...." (البازغي، 2002، صفحة 21) وهي رؤية تولدت من العلاقة المتأزمة بين الأنا والآخر. ذلك أن السارد حاول نقل تلك الصورة الموجهة عبر جدل الأنا والآخر كنسق ظاهر يكشف عنه السرد ذلك "إن خطاب الأنا والآخر خطاب يظهر في عدة مظاهر منها الرواية، فيتجلي في عدة مستويات برؤية فنية حاملة لقيم جمالية عن الخير والشر وعن الأمان والخوف وعن السلم والرعب. إن خطاب الأنا والآخر أثرى النصوص الروائية بما أمدّها المبدعون من مستويات لغوية ومواقف مبدئية تتباعد- إلى حد ما- عن ردود الأفعال، بل جاءت لتكون علامة فارقة لتهتم ببعض الجزئيات التي ربما لم ينتبه إليها" (تخريشي، 2021، صفحة 69) خاصة وأن الرواية الجزائرية هي مجموعة من التراكمات التاريخية والاجتماعية التي شهدتها الجزائر في ظل الاستعمار الغاشم.

إن الأدب ما هو إلا صورة عاكسة لهذا الصراع وفي رواية الدار الكبيرة التي تعبر عن الأنا الجزائرية الجمعية، الحيز المكاني الضيق أو المصغر للجزائر والشعب الجزائري ولكل ما يرمز له أما صورة الآخر فكل ما هو خارج عن هذا النطاق من ذات وثقافة جزائرية والتي بدأت من المدرسة وأثناء درس الأخلاق

كأول كذبة من طرف الآخر (الاستعمار) في محاولة لطمس المعتقد السياسي وتمويه الأجيال الناشئة، من خلال رسم الحيرة والشك لدى بطل الرواية الطفل عمر من خلال ما درسه التلاميذ في الكتاب المدرسي "قال إبراهيم: فرنسا هي أمنا" (ذيب، 1970، صفحة 23) فهي الفكر الضاغط من طرف الآخر الذي يسرب أيديولوجيته الاستعمارية من منطلق المغالطة والفكر الخاطئ وكذا طمس الحقيقة.

لعل ذلك يعكس ما عايشه الكاتب وفضح الأفكار الصادرة من المدرسة الفرنسية الكاذبة "إنما هي مشاعر الشك التي تكون قد رأو دت المؤلف نفسه إزاء الدرس ذاته، حين كان تلميذ في المرحلة الابتدائية وخاصة وأن برامج الدراسة لم تكن تعرف تغييرا يذكر، كما أن هناك ثوابت فيها غير قابلة للتغيير ومنها هذه المقولة في تعريف "الوطن" ومثلها مقولة "أجدادنا الغاليون" وغيرها ويكون المؤلف قد احتفظ بها كذكرى لا تتمحي من ذهنه" (منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، لا يوجد، صفحة 388) هذه الأيديولوجية في التعامل مع الشعب عززت من استلهاام الكاتب محمد ديب إلى تمرير نسق السؤال وتكذيب الآخر "فرنسا عاصمتها باريس، إنه يعرف هذا . الفرنسيون الذين يراهم في المدينة، قادمون من تلك البلاد، وإذا أراد أحد أن يذهب إلى هناك أو أن يعود من هناك، عليه أن يجتاز البحر، أن يركب الباخرة..... ولكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه .. إن أمه في البيت .. إنها عيني . وليس له أمان اثنان. عيني ليست فرنسا . ليس ثمة أشياء مشتركة بين أمه وفرنسا . لقد اكتشف عمر الكذبة" (ذيب، 1970، صفحة 23) ومن ثم فهذا التساؤل يثبت ذلك الصراع بين الهوية والآخر

تعد مواجهة الآخر هو صدام من أجل ثبات الهوية "وهل الهوية شيء آخر غير رد فعل ضد الآخر" ونزوع حالم لتأكيد الأنا بصورة أقوى وأرحب" (الجابري، 1995، صفحة 17) ومن ثم فإن الكاتب يصور لنا هؤلاء التلاميذ والشعب كله ضحايا لآخر والمستقوي عليهم، عن طريق التجهيل أو طمس الحقائق، وبالرغم من ذلك فإن التناقض واضح جلي والتعبير عن عمق المأساة التي أثرت في كتابة الرواية.

إن تخصص الكاتب محمد ديب في الكتابة عن موضوع الآخر قد يكون تصوراً وصوراً موقفاً اتجاه الأنا أو المركز المهمش "ولعل سمة الآخر المائزة هي تجسيد ليس فقط كل ما هو غريب... بالنسبة للذات

أو للثقافة ككل بل كل ما يهدد الوحدة والصفاء" (البازغي، 2002، صفحة 21) فالطفل عمر يمتلك بساطة في التفكير وذكاء في التحليل ما يجعله متأكدا من أن الآخر محمل بالكاذب المنضوية تحت رفض هذا الشعب وسلبه لوطنه.

إن صورة الآخر كذلك جسدتها الرواية في صورة الشرطة التي تمثل السلطة الاستعمارية، "لعل الكثير من الأعمال الأدبية، إن كانت رواية أو قصة أو مسرحية أو قصيدة، في مجملها تقدم الصورة السلبية لرجال الشرطة، فهم باستمرار يشكلون أداة القمع والبطش التي تعمل بالناس الشر والقهر، وأقولها بتواضع بأنني لم أقرأ نصا يحمي هؤلاء القساة أبدا، من هنا سنجد حالة طبيعية أن يقدم رجال الشرطة في ظل الاحتلال بصورة سلبية" (الحواري، 2014) وفي هذا السياق تصبح صورة الآخر مثيرا للنقاش الذي يحدد طبيعة العلاقة بين الشعب والسلطة وأيديولوجية الحكم القائم على القمع، مثله الكاتب في شخصية عمر الصغير الذي حيث كان الطفل عمر يخاف الشرطة "إن قلبه بهم بأن يخرج من صدره، ود لو يستطيع أن يصرخ، وهو متسمر في مكانه: «ماما» واخضل جبينه. وأعول فجأة يقول: الشرطة... الشرطة... هاهم الشرطة" (ذيب، 1970، صفحة 38) خلقوا حالة من الخوف في ذهن الطفل عمر وحالة الرعب التي رسمتها الشرطة في مخيلته.

إنه دليل على سلوكهم القاسي، تركوا هذا الإرهاب في الأطفال والمجتمع ككل، "أن رجال الشرطة ينبشون الأوراق التي كان حميد سراج قد جمعها عند أخته، كانوا يجمعون هذه الأوراق، ومن اجل ذلك قلبوا الغرفة عاليها سافلها" (ذيب، 1970، صفحة 42) فالشرطة تحولت إلى عدو، أداة للتخريب والتكسير والظلم، ويقومون بضرب الناس واعتقالهم، من هنا لا يوجد لهم إلا الصورة السلبية، خاصة في المجتمعات التي تعاني من الاحتلال والتخلف. ثم تأتي صورة الآخر في الظلم والانعدام التام للعدل وليس غريبا في بلد محتل، "ما يسمونه قضاء ليس إلا قضاءهم.... هو قضاء ما أو جدوه إلا ليحييهم، ليضمن سلطتهم علينا، ليحطمنا، ليدلنا..." (ذيب، 1970، صفحة 45) .

كما وقد طرح الكاتب محمد ديب قضية الجهل المتجذر في العقلية الشعبية والغريبة في الوقت نفسه حول انتظار الآخر كمخلص، وهي عقلية اتكالية والتفكير بطريقة غير سوية، المنبعثة من العيش تحت

وطئة القهر، والجبن الذي دعاها إلى عدم محأو لة تحرير نفسها من الظلم، وانتظار الآتي من الخارج لتخليصها من ربة الاستعمار، كفكرة المخلص في التراث العربي؛ من انتظار المهدي للتخلص من الأعور الدجال ويجمع شمل الأمة وهي نفسها عند الجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي في تمرير لصورة الآخر كبطل مخلص له "كان يقال أن الذي سيشهر هذه الحرب رجل قوي جبار. إن شعاره وهو ذلك الصليب المعقوق الذي يشبه عجلة، يملأ جدران المدينة مرسوم بالفحم أو بالطباشير، وكان هناك صليبان رسمت بالقطران وكتبت إلى جانبها: يعيش هتلر. إن الإنسان يصادف هذا الصليب وهذه الكتابة أنى توجه، إن هذا الرجل الذي اسمه هتلر قوي قوة هائلة لا يستطيع أحد أن يقيس نفسه به. وهو ماض يستولي على العالم كله. وهذا الرجل الذي يبلغ هذا المبلغ من القوة صديق المسلمين فمتى وصل إلى شواطئ هذه البلاد، أدرك المسلمون كل ما يتمنون، وحظوا بسعادة كبرى، إنه سيحرم اليهود من أملاكهم، فهولا يجهم. ولسوف يقتلهم، سيكون حامي الإسلام، وسيطرد الفرنسيين، ثم الحزام التي يشد جسمه قد كتبت عليها لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إن هذا الحزام لا يتركه لا في النهار ولا في الليل وهو لذلك لا يمكن أن يُغلب" (ذيب، 1970، صفحة 132) ليتحول الآخر إلى منقذ في تلك الفترة العصيبة من حياة الجزائريين ! النابعة من يأس وعقلية متخلفة.

هذا يخلق طرحا لأسئلة عدة "التخلف لا يقدم إلا الأفكار المتخلفة، في هذا المشهد الذي تكرر في العراق والسودان واليمن وليبيا وسوريا وكل من راهن على المحرر الخارجي، لا ندري لماذا نحن في المنطقة العربية دائما كنا نتعاطى مع مسألة الخلاص من الظلم أو الاحتلال بالخارج وليس فينا نحن؟ هل تركيتنا الفكرية هي السبب، أم أن الإيمان له علاقة بهذا الأمر؟" (الحواري، 2014) فالآخر أصبح الذات بوصفه نموذجاً حضارياً متفوقاً، والإحساس بالدونية والضعف عند الأنا.

تجلت كذلك صورة الآخر في الفروق الطباقية داخل المجتمع الواحد، فناهيك عن الآخر الأجنبي المتمتع بكل حقوقه في المواطنة، إلا أن الكاتب أشار إلى عينة من المجتمع، فيل جانب العمل الكادح تحت ربة الفقر المدقع الذي تعاني منه العائلات الجزائرية والجوع، هناك متنعم بمستوى معيشي أحسن "كانت لالا، بالرغم من حبها للتوفير والاقتصاد في كل شيء، واحدة من الناس الذين يأكلون كل يوم، وكان

شبعها في كل يوم من الأيام يضيف عليها مهابة، ويحمل على احترامها، وكانت تساعد عيني وأطفالها على احتمال لحظات العوز، فتمدهم بين الفينة والفينة بقطع من الخبز الأسود..." (ذيب، 1970، صفحة 76) هنا إبراز للطبقية والميز في فرص العيش خاصة وأن "المسألة الاقتصادية من أهم المسائل التي تشغل الأفراد والجماعات، من هنا قدمها محمد ديب بكل وضوح، إن كان من خلال السرد الروائي الذي يعطي مدلولاً واضحاً عن الحالة الاقتصادية البائسة..." (الحواري، 2014) ومن ثم الصورة العاكسة لحالة المجتمع وصراعه مع الآخر.

6. خاتمة:

استطاع الكاتب من خلال السرد إبراز الصراع النفسي الذي كان ناثراً في نفوس المواطن الجزائري إبان الحرب، هذا الصراع المبني على ثلاث أساسيات الفقر، الجوع، الخوف هذه الثلاثية التي قامت عليها الرواية، جعلت من الكاتب التعمق في المجتمع المحتل احتلال سياسي ونفسي، فرواية الدار الكبيرة هي تعبير عن مشاعر وأحاسيس طال بها الزمن في البحث عن متنفس يخرجها من ظلماتها الثلاث.

- إن البحث في رواية لمحمد ديب هو بحث في فكر كاتب عايش فترتين فترة الاستعمار وفترة الما بعد الاستعمار ما يطرح تفكيراً مزدوجاً عنده، بين السحن الكبير والحرية، وإن كانت الرواية قد كتبت قبل الاستقلال إلا أن موضوعها يبقى محمل بفكر مستمر لارتباطه بالبعد الاجتماعي وقضاياها التي ما تزال شائكة لحد الساعة. والتي سلط عليها الضوء عبر شخصية عمر.

- شخصية عمر هي صورة الطفل الذي قد تكون انعكاساً لشخصية الكاتب، وما شهدته في تلك الفترة والتي تحمل أفكار وأسئلة بقي معلقة لفهم الوضع البعيد عن الإنسانية، المحمل بالتناقض بين السعي لإيجاد الهوية وبين الآخر الظالم والمضطّر للعيش معه في كبذ.

- تقوم علاقة صورة الآخر على التناقض بين كرهه لتواجهه كمحتل وعدم تحقيق العدالة وتسريب الزيف وبين الحلم به كمنقذ له فهناك انعدام لحوار التعايش نتيجة للفكر الطبقي والتميز داخل منظومتين فكريتين الأنا والآخر.

في خضم هذه الرؤية حول اصطدام نسق الهوية وصورة الآخر في الرواية الجزائرية سواء بقيمتها السردية والجمالية بينت ثقلها وضعفها يبقى السؤال هو الإنسان الجزائري المرهق، الذي ثار من أجل تحقيق مطالبه من خلال حريته، هل أثبت هويته أم ما زال متأثراً بما خلفته العقلية الاستعمارية، هل أصبح لحمه واحدة بعد تربيته إلى الاستقلال، أم خلق في ذاته صورة للآخر بطريقته؟ هل تحققت العدالة أم ما تزال تحت وطأة صراعها أزلي في ظل الحرية؟

5. قائمة المراجع:

1. الأحمّد، ز. (01 01، 2020). *العلاقة بين الرواية والتاريخ*. aljadeedmagazine.com.
2. البازغي، م. أ. (2002). *دليل الناقد*. (éd. ط. (3) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
3. الجابري، م. ع. (1995). *مسألة الهوية العربية والإسلام... والغرب*. (éd. ط. (1) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
4. الحلاق، م. ر. (1997). *نحن والآخر دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر*. اتحاد كتاب العرب.
5. الحواري، ر. (21 3، 2014). *الدار الكبيرة* مُحمّد ذيب. www.ahewar.org.
6. الدسوقي، م. (1 4، 2018). *اللغة والهوية تحديات الهوية بين تغريب اللغة وتعريبها*. *الحدّثة*، p. 388.
7. الزير، ر. خ. (2003). *الشخصية في روايات غالب هلسا*. الجامعة الأردنية.
8. السيف، ن. ب. (لا يوجد). *الهوية والثقافة*. Noor-Book.com.
9. الغدامي، ع. أ. (2005). *النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية*. (éd. ط. (3) الدار البيضاء، المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
10. تحريشي، م. (2021). *تداخل الأجناس وتراسل الفنون في الرواية*. برج بوعريّيج، الجزائر: دار خيال.
11. دلال، ه. (30 11، 2020). *نسق الهوية والتمثيلات الثقافية في رواية النار لبشير مفتي أنموذجاً*. *مجلة علوم اللغة العربية وآدابها*. 571، p.
12. ذيب، م. (1970). *الدار الكبيرة*. دار الهلال.
13. قاسم، م. (1996). *الأدب العربي المكتوب بالفرنسية*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

14. منصور, ن. (/ 05, 2016). هوية الطفل الجزائري في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب. مجلة إشكالات في اللغة العربية. p. 119 ,
15. منور, أ. لا يوجد. (أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية. دار الساحل.
16. منور, أ. (2007). الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها. ديوان المطبوعات الجامعية.
17. هولبرون, ه. و. (2020). سوشيولوجيا الثقافة والهوية). ح. محسن. Trad.), دار كوان.

